الرقيق

مصادرهن

من الثابت أن العرب عرفوا الجوارى قبل الإسلام ، وأنه كان لأثرياء قريش وزعمائهم بعض منهن ينصرفن إلى الغناء أو إلى الأعمال التى قامت بها الجوارى بعد ذلك فى قصور المسلمين .

كان العربى عهدئذ ينظر إلى المرأة كما ينظر إلى أى متاع آخر من رياش أو ما شية أو مال . فإذا غزا جاره ، وتغلب عليه ساق أنعامه ، وحمل ذراريه ونساءه ، وجعل الجميع فى خيمته ، وتصرف بهم كما يتصرف بالأسلاب الحربية . ونظر بعض الأعراب الجاهليين إلى جميع نسائهم الحرائر والمستعبدات نظرة استصغار واحتقار . فإذا توفى الوالد استولى ابنه الأكبر على نسائه ، وأصبحن له زوجات . غير أن الأم التى أنجبته كانت تنجو من تنفيذ هذه الشريعة الجائرة . وكان زواج المتعة شائعاً بين رجال القوافل بنوع خاص ، فيجمع الرجل فى خيامه أو منزله ما شاء من النساء دون عد ، ويزور عنهن عند ما يريد ، أو تصرفه المرأة

بتحويل باب خيمتها ، فيدرك الزوج أن العهد انبتر بينهما ، فيسعى إلى خيمة أخرى .

قامت الفتوح التى رافقت ظهور الإسلام مقام الغزوات فى الحصول على السبايا . فإذا تغلب العرب على عدوهم فى ساحة القتال ، ودخلوا دياره عنوة وقهراً ، ولم تعين شروط الفتح يعتبرون البلاد المفتوحة ملكاً لهم ، بما فيها من أرض ومحاربين وشيوخ وأولاد ونساء . يتصرفون بهم تصرف المالك بملكه . فكل من يقع فى أيديهم من بنات المحاربين ونسائهم ، وإن كان ، من الأسر المالكة ، يصبحن إماء لهم ، ينقلونهن إلى بلادهم مع الأسلاب ويتوزعونهن بينهم ، ويحولونهن إلى منازلهم حيث يصرفونهن إلى ما يشاؤون من الأعمال . وقد أسر بعض الجند العربى الزاحف على بلاد فارس فى أيام عمر بنات يزدجرد بن شهريار بن كسرى ، وسبوهن وأرسلوهن مع من أرسلن إلى المدينة . فأمر الخليفة ببيعهن . فأعطاهن إلى دلال ينادى عليهن فى السوق . وكان من عادة النبيلات الفارسيات أن يحجبن وجوههن . فكشف الدلال عن وجه إحداهن فلطمته لطمة شديدة على وجهه ، فصاح : واعمراه ! ورفع أمرها إلى الخليفة ، فدعاهن إليه ، وأراد أن يضربهن بالدرة . فحال على دونهن قائلا : يا أمير المؤمنين إن الرسول قال : أكرموا عزيز

قوم ذل ، وغنى قوم افتقر . إن بنات الملوك لا يبعن ، ولكن قوموهن . فقومهن وأعطاه أثمانهن ، وقسمهن بين الحسين بن على ، ومحمد بن أبى بكر ، وعبدالله بن عمر ، فولدن ثلاثة من مشاهير العرب هم على بن الحسين المعروف بزين العابدين ، والقاسم بن محمد ، وسالم بن عبدالله .

منذ ذلك العهد أخذ عدد الجوارى يزداد حتى بلغن مئات الألوف . وكان لدى القواد والأمراء والعمال العشرات منهن ، ولا سيما بعد أن أخذ العرب بالانسياح غرباً نحو شمالى أفريقية والأندلس . فقد بلغت غنائم موسى بن نصير فاتح المغرب سنة ٩١ هـ ثلاثمائة ألف رأس سبى ، بعث خمسها إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك ، أى ستين ألفاً[١] وقيل إن موسى هذا عند ما جاء دمشق استقدم معه ثلاثين ألف عذراء من الأسر القوطية النبيلة[٢] .

رحلات النخاسين

من الأسباب التى كانت تدعو العرب إلى الفتوح والاندفاع وراء حدودهم أخذ السبايا والرجوع بهن إلى مقرهم . وليس فى نيتهم الاستقرار حيث تدافعت جماعاتهم الزاحفة . ولعل دخولهم

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ١١٣ وابن الأثير ج ٤ ص ٢٥٩ .

(٢) ابن الأثير ج ٤ ص ٢٧٢ .

جنوب فرنسة . وكثيراً من المعارك التى دارت بين العباسيين والحمدانيين وبين الروم كانت من هذا النوع . يلاقى الفاتحون سبياً عظيماً حتى يضطرب أمرهم ؛ فلا يجدون لديهم من المؤن ما يكفى لإطعام السبى ؛ فينادون عليه ، ويبيعونه جماعات وبأثمان زهيدة ، ويعود الجندى أحياناً وهو يسحب وراءه عشرات الجوارى . ولسنا نغالى إذا قلنا إن هذه المعارك وما شابهها من المواقع التى عنفت فى أروبة بين الأقوام المختلفة كانت منابع ذهبية للتجار من النخاسين . فيسيرون وراء الجيوش مرافقين لها ، وفى حوزتهم كل ما يحتاجون إليه فى تدبير شؤون السبى ، حتى إذا أسفر القتال عن وجهه ، وتبين الغالب من المغلوب ، أقبلوا على المنتصر ، واشتروا منه الرجال والنساء والأولاد ، فوضعوا القيد فى الأرجل أو الأعناق ، وقادوهم إلى أسواق الرقيق حيث يبيعونهم بأثمان باهظة .

لاقى هؤلاء النخاسون فى العربى فاتحاً سخياً ، ولا سيما فى الفتوح الأولى ومواقع الهند والروم . ولكن هذا العربى بعد أن كان مصدراً من مصادر الرقيق أخذ يعتمد على النخاسين الجوابين فى أطراف المعمور لشراء الجوارى ، وبنوع خاص على يهود الأندلس الذين كانوا يتوغلون فى أروبة وينتقلون

إلى روسية أحياناً ، فيحملون من هناك جماعات من الجوارى السلافيات والجرمانيات اللائى عرفن فى بلاد العرب باسم الصقلبيات . وقد صادفن سوقاً رائجة لبياض بشراتهن ، وطول أجسامهن ، ولما تحلين به من الجمال الماتع ، فترفن فى معيشتهن ، وحفلت حياتهن بالشهى من المطعم ، والشفيف من الملبس ، والرفيع من المقام ، والكثير من الإعزاز والإكرام .

توغل بعض النخاسين فى بادية تركستان ، واشتروا هناك الفتيات من آبائهن ، ونقلوهن إلى سمرقند حيث عنى بشؤونهن إلى أن برزت معالم الجمال فيهن ، وهذبوهن على ما يحب أسياد بغداد والبصرة ودمشق والفسطاط ، فدفعوا بهن الأثمان المرتفعة ، وهذا النوع من أشهر الأنواع وأفضلها . وكان بعض العمال يجعلون فى خراج الأقطاع الذى يحكمونه جماعات من السبايا ، يوجهونهن إلى الخليفة ، منهم ابن طاهر الذى أهدى الخليفة المتوكل هدية فيها مائتا وصيفة ووصيف (١)

إلى جانب هذين المصدرين : الأسر والشراء ، مصدر ثالث أقل أثراً منهما ، هو الرقيق المسلم الذى كانت تستولى عليه جماعة القرامطة . وهى فرقة هدامة فلسفية دينية ظهرت فى أواخر القرن الثالث الهجرى ، وعمرت طويلا فى الطرف الجنوبى من

---

(١) المسعودي ج ٢ ص ٢٨٠ .

شبه الجزيرة . كانت تعتقد أنها وحدها الفرقة المؤمنة فتستبيح دماء المسلمين ، وتأخذ من يقع فى يدها من النساء والرجال والأولاد أسرى . وتبيعهم بيع الأرقاء . وقد قطعوا طريق الحاج عام ٣١٢ هـ (٩٢٤) م فقتلوا كثيراً من الرجال ، وأسروا بعضهم ، وأخذوا خمسمائة امرأة . وانسحبوا بالجميع إلى مقرهم فى هجر . يضاف إلى هذا كله المولدات الشهيرات فى مجالس الأدب والغناء اللواتى ولدتهن الجوارى الجليبات فى بلاد الإسلام ، فنشأن نشأة محلية ، وتحلين بالمحبب من الخصال ، والجميل من الفنون . وأصبح لهن مناعة العربيات من حيث دوام جمالهن . ودل الأعجميات من حيث البراعة فى أسر قلوب مواليهن . وبهؤلاء استهينت الأموال ، فهدرت بدون حساب ، ولأجلهن غالى البزازون والعطارون فى أسعار سلعهم ، وحيكت المؤامرات . وبهن تدله العمال والأمراء والقواد والخلفاء . فإذا وقعت إحداهن فى يد نخاس تفنن فى تزيينها وتعطيرها والدعوة لها ، وحافظ عليها محافظته على مقلتيه ، لما يأمل من ورائها من مال وفير . وربح جزيل ، يغنيه عن عناء السفر البعيد فى السعى والتفتيش .

أخاديع النخاسين

كانت النخاسة من التجارات الرائجة . لا تخلو مدينة من المدن الكبيرة من سوق لها ، تبنى فيها البيوت ، ويؤتى إليها بأنواع الرقيق المختلف المصادر والألوان والأجناس ، فى حين أن عرض الجوارى فى الأسواق يحط من قدرهن ، لأن البارعات فى الجمال والفنون لا ينزلن هذه المنازل المهينة ، وإنما يسعى وراءهن ، وترسل الرسل فى التفتيش عنهن . لذلك كانت هذه الأسواق تنحصر بالرقيق المعتدل الجمال ، ويندر أن يكون فى النساء حسناوات أو فنانات .

تقع دار الرقيق فى بغداد قرب دجلة فى الجانب الغربى ، حيث بقيت آثارها بادية إلى القرن الثالث عشر للميلاد[1] . وكان النخاسون يحتالون فى إبراز جمال الجوارى المعروضات هناك ، وفى إخفاء عيوبهن . وقد كتب بعض العلماء رسائل فى حيلهم وخدعهم ، وفى فن تقليب الجوارى لمعرفة الطبيعى من المصطنع ، بعد أن غالوا فى تمويه ما يريدون ستره عن عين المشترى . فكم من سمراء كمدة بيعت بصفراء مذهبة ، وكم من مرة جعلوا العين الزرقاء كحلاء وحمروا الخدود المصفرة ، وسمنوا الوجوه

---

(١) يوسف غنيمة ـ تجارة العراق قديماً وحديثاً ص ٥١ ـ بغداد .

المقعقعة . وأعدموا الوجوه شعر اللحا . وأكسبوا الشعور الشقر حالك السواد ، وجعدوا الشعور السبطة . وبيضوا الوجوه المسمرة ، ودملجوا السيقان المعرقة ، ورضوا الشعور الممرطة ، وأذهبوا آثار الوشم والجدرى والنمش والحكة . يقول بعض النخاسين : « ربع درهم حناء يزيد ثمن الجارية مائة درهم فضة » . ومن عادتهم تطويل الشعور بأن يصلوا فى طرفها من جنسها . وتنصيع الأسنان بالسواك وبالأشنان والسكر وسحيق الصينى أو الفحم أو الملح المدقوق . ومن وصاياهم للجوارى أن يتبرجن للمشترى ويختفين منه أخرى . فإن هذا مالك للقلوب وأن يدارين الشيوخ ، والناغرى الطباع . ويستملنهم ويتجنبن الشباب . ويمتنعن عليهم ليتمكن من قلوبهم .

كانت الجوارى يخضبن حواجبهن بالدامك . وأطرافهن — إن كانت الجارية بيضاء — بالخضاب الأحمر ، وإن كانت صفراء بالأسود ، ويجرون الصناعة مجرى الطبيعة فى كشف الضد بالضد(١)

---

(١) آدم متز — الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ١ ص ٢٧٠ — ٢٧١ ترجمة أبى ريده .

أنواع الجوارى

وجعل الكتاب الاختصاصيون منهن أنواعاً ، وميزوا كل نوع عن الآخر بذكر فضائله ونقائصه . وفرقوا بين الجوارى كما يفرق علماء النبات والحيوان المعاصرون موضوع دراستهم فى مختبراتهم ومؤلفاتهم ، فلاحظوا أن للهنديات حسن القوام ، وسمرة الألوان ، وحظاً وافراً من الجمال مع صفرة وصفاء بشرة ، وطيب نكهة ، ولين نعمة ، ولكن الشيخوخة تسرع إليهن ، وهن يصلحن للولد . وأن القندهاريات فى معنى الهنديات والسنديات ، ينفردن بدقة الخصور وطول الشعور . . . والبربريات مطبوعات على الطاعة ، نشيطات للخدمة ، ويصلحن للتوليد ، لأنهن أحدب الإناث على ولد . ويقول أحدهم إذا اجتمع للبربرية مع جودة الجنس أن تجلب وهى بنت تسع حجج ، ثم كانت بالمدينة ثلاث حجج ، وبمكة ثلاث حجج ، ثم جاءت إلى العراق ابنة خمس عشرة ، فتأدبت به ، جمعت إلى جودة الجنس شكل المدنيات ، وخنث المكيات ، وآداب العراقيات ، واستحقت أن تخبأ فى الجفون ، وتوضع على العيون . وأن الزنجيات مساوئهن كثيرة ، وكلما زاد سوادهن قبحت صورهن ، وتحددت أسنانهن ، وقل الانتفاع بهن ، وخيفت

المضرة منهن ؛ والغالب عليهن سوء الأخلاق ؛ وكثرة الهرب . وليس فى خلقهن الغم ؛ والرقص والإيقاع فطرة لهن ؛ وطبع فيهن . . . أما الحبشيات فالغالب عليهن نعومة الأجسام ولينها وضعفها . لا يصلحن للغناء ولا للرقص ؛ دقاق لا يوافقهن غير البلاد التى نشأن فيها . . . وأن البجاويات مذهبات الألوان ؛ حسناوات الوجوه ؛ ملس الأجسام ؛ ناعمات البشرة ؛ جوارى متعة . . . وأن التركيات قد جمعن الحسن والبياض والنعومة ؛ وعيونهن مع صغرها ذات حلاوة ؛ وقدودهن ما بين الربع والقصر ؛ والطول فيهن قليل ؛ وهن كنوز الأولاد ؛ ومعادن النسل . . . والروميات بيض شقر سباط الشعور ؛ زرق العيون عبيد طاعة وموافقة وخدمة ومناصحة ووفاء وأمانة ... وأما الأرمنيات فإن العرب يلصقن بهن أقبح الأوصاف وأشنع الصفات ، ونكتفى بالإشارة إليها دون التفصيل [1] .

أسواق الرومان

عرفت المدنيات القديمة والقرون الوسطى فى أروبة أمثال هذه الأسواق التى تعرض فيها سلع الجمال . وأشهرها تلك التى نظمتها الجمهورية الرومانية فى العاصمة والمدن الكبرى ،

---

(١) الحضارة الإسلامية عن ابن بطلان .

وجعلت لها شروطاً وقوانين . وأرغمت القيانين على التقيد بها . ليحولوا دون خداعهم الشارين ، كما أنها حظرت عليهم أن يشتروا الأحرار أو يبيعوهم ، غير أن هذه القوانين كانت تتوارى فى الأزمات السياسية والاضطرابات الاجتماعية فيسعى الأحرار إلى هذه الأسواق ويبيعون أنفسهم وأولادهم ونساءهم .

من الشروط التى وضعها المتشرع الرومانى للأسواق الرسمية أن تدهن أرجل الرقيق بالأبيض ، أى بعلامة الاستعباد . واما القواد فإنهم يستعملون الطبشور طلباً للإسراع لكثرة عددهم ، ويعرضون جماعات جماعات فى مكان مرتفع أمام الجمهور ، أما إذا كانوا من الشخصيات السياسية المعادية فيجعلون فى قفص كبير . ويعلق أحياناً فى رقبة كل منهم رق كتبت فيه خصائص حامله المميزة كالأهل والمولد والصفات والكفاءة وأحياناً النقائص . وبعد أن تتم عملية العرض يبدأ البيع ، فيكون بالمزاد العلنى . وتقسم جماعات الرقيق إلى عبيد عمل ، وجوارى منازل ، ويضاف إلى الفريقين بعض العجائز .

أما فى الأسواق الخاصة فإن القيان الرومانى يعرض بضاعته أمام الشارين ، ويأمر أرقاءه بالركض والقفز والقيام ببعض الحركات الرياضية ، ويذكر صل كل منهم . وكان يغالى فى تمويه العيوب وإبراز الحسنات أسوة بجميع القيانين العالمين ، فيجعل

البشرة الكامدة مشرقة ، والجسم الضامر ممتلئاً . ويتفنن الشارون في اكتشاف المخبوء فيما يعرض أمامهم ، ويحذرون الأخاديع ، ويرجعون إلى الرسائل المؤلفة في مثل هذا الباب . ولعل بعضها يشبه رسالة ابن بطلان في تقليب الرقيق التي استقينا منها بعض الإشارات في مكان آخر . وكان القانون صريحاً في مثل هذه الحالة ، فيرى أن الخرس والصمم وقصر النظر والبرداء والنقطة والبخر الدال على مرض متأصل في الرئتين والعقم والإجهاض أو أي نقص في الأعضاء، لا يعلن قبل الشراء، هو سبب من الأسباب التي تقضي برد الجارية إلى القيان واسترجاع ثمنها منه .

أثمانهن

تختلف أثمانهن باختلاف أجناسهن ، والفنون التي يحسنها والعصر الذي يعشن فيه . ففي زمن الفتوح وتدفق السبايا على المدن تنخفض الأسعار لكثرة العرض وقلة الطلب . فتنحدر أثمانهن انحدارا عمودياً حتى تباع الجارية المليحة الفتية المثقفة بأقل من مائة دينار . أما إذا حل الجفاف ، ونضب معين الغزو والفتوح ، واعتمد النخاسون على المولدات والجلبيات من البلدان القصية في تموين أسواق الرقيق فإن أثمانهن تعود إلى الارتفاع بحيث يصبح معدل ثمن الجارية التي سبق وصفها ألف دينار .

أما إذا شئنا أن نتتبع الأثمان المرتفعة التى كان ينقدها الخلفاء والأمراء والعمال والقواد وأصحاب الثراء فى الجوارى اللواتى يرقن لهم فإننا نقفز إلى عشرات الألوف . فسعيد أخو سليمان بن عبد الملك ابتاع مغنية مشهورة بحسن غنائها ، وروعة جمالها ، بمليون درهم ، أو ما يعادل سبعين ألف درهم[١] ، واشترى يزيد ابن عبد الملك الأموى سلامة المغنية بعشرين ألف دينار ، وابتاع الرشيد إحدى جواريه بمائة ألف دينار . ورغب محمد الأمين يوماً إلى جعفر بن الهادى أن يبيعه جارية له اسمها بذل فأبى ، فملأ له قارباً ذهباً ، وأرسله إليه . وفى الربع الأول من القرن الرابع الهجرى اشترى ابن رائق أمير العراق جارية مولدة سمراء حلوة الغناء بثلاثة عشر ألف دينار ، وأعطى من دله عليها ألف دينار . وأشار الجاحظ فى رسالة القيان إلى جارية تعرف باسم حبشية بيعت بمائة ألف دينار[٢] وعشرين ألف دينار. ولا يغرنا اسم حبشية ، فإن كثيرين من الأسياد كانوا يطلقون على المفضلات من جواريهم أقبح الأسماء لحفظهن من العين الشريرة .

---

(١) العقد ج ٣ ص ٢٠٣ .

(٢) رسالة القيان ص ٣٠ .

تكاثرهن

نخضئ فى التقدير إذا قلنا إن عدد الجوارى كان قليلا فى المنازل العربية آنذاك . فإنهن يغلبن كثرة على الحرائر ، ويحصين بالمئات فى منازل العظماء والأثرياء وأحياناً بالألوف . وفى زمن الحصب يزيد عددهن على عشر فى منازل العامة . وكن من نفيس المتاع الذى يتهاداه الناس ، أو كما يقول الجاحظ بمنزلة المشام والتفاح الذى يتناقله القوم بينهم[1] ، وقد أحصى عدد الرقيق الذى كان بحوزة الخليفة الراشدى الثالث فإذا به يزيد على ألف ، وكان معاوية يؤتى بالجوارى ، فيوزعهن على المقربين إليه ، ويعهد لبعضهن بالوقوف وراءه ليدفعن عنه الذباب ، وليروحنه بالمراوح ، أو ليأتينه بما يحتاج إليه من شراب . وعند ما زفت بوران إلى المأمون جعل والدها ، احتفاء بهذا الزفاف ، رقاعاً كتب فيها أسماء ضياع وجوار ، فمن وقعت واحدة منها فى يده كان له ما فيها . فالجوارى من الهدايا المألوفة التى يهديها الخلفاء إلى الشعراء والمقربين إليهم . من ذلك أن ابن الأنبارى كان يتردد على أولاد الراضى ، فمر يوماً بسوق النخاسين ، فأبصر بجارية تامة الأوصاف ، فحلت فى قلبه محلا وسيعاً . وتابع طريقه متحسراً عليها إلى دار أمير المؤمنين .

---

(١) رسالة القيان ص ٥٦ .

فسأله عما به، فروى له الأمر . فبعث من اشتراها له ، وحملها إلى منزله ، فلما دخله وجدها هناك[١]. وأنفق بعض الخلفاء فى إطعام جواريه كل يوم مائة دينار . وكان للمتوكل اثنا عشر ألف سرية ، ويختصر بعضهم هذا العدد فيجعله أربعة آلاف[٢] ويختزله ثالث فيحوله إلى أربعمائة ، وهو عدد فيه كثير من الاقتصاد والقناعة . ويزول عجبنا بعد هذا عند ما نقرأ ، فى صفحات التاريخ ، أن بعض القواد كانوا يرتسون كتيبة من الجند مؤلفة بأجمعها من أبنائهم وذراريهم . وعند ما تغلب صلاح الدين الأيوبى على الفاطميين عثر فى قصورهم على اثنى عشر ألف نسمة كلهم من النساء ، ليس فيهم من الذكور إلا الخليفة وأبناؤه . وقال ابن حزم فى نقط العروس : «لم يل الخلافة فى الصدر الأول من أمه أمة حاشا يزيد وإبرهيم ابنى الوليد ، ولا وليها من بنى العباس من أمه حرة حاشا السفاح والمهدى والأمين . ولم يلها من بنى أمية بالأندلس من أمه حرة أصلا» . وليس هذا يعنى أن جميع هؤلاء الجوارى كن للتسرى ، فإن بعضهن كن يصرفن إلى أعمال المنزل ، وبعضهن ينفقن أيامهن وجهدهن فى وجوه متعددة نشير إليها فى مكان آخر .

---

(١) الحضارة الإسلامية ج ١ ص ١٩ .

(٢) المسعودى ج ٢ ص ٢٧٩ .

من أغرب ما يمكن أن نسمعه فى عصرنا الحاضر أن من مميزات الخرائر الكاملات الصفات إهداءهن أزواجهن الجوارى المليحات من ماطن الخاص . فإن هارون الرشيد عند ما تدله بحب دنانير جارية جعفر البرمكى ، وألف التردد عليها اشترت زبيدة امرأته عشر جوار مليحات ، وأهدتهن إليه لتحوله عنها ؛ وبينهن مارية أم المعتصم ؛ ومراجل أم المأمون ؛ وفاردة أم صالح[1] . وكذلك روى الجبرتى المؤرخ المصرى المشهور عن إحدى زوجات أبيه أنها كانت . لصلاحها وبرها بزوجها ؛ تشترى له الجوارى من ماطها وتحليهن بالذهب والثياب وتقدمهن لزوجها طلباً للأجر والثواب [2].

---

(١) الأغانى ج ١٦ ص ١٣٧ .

(٢) الجبرتى ج ٢ ص ١٨٢ ، زيدان — تاريخ التمدن الإسلامى ج ٥ ص ٧٩.